البنية والدلالة في (الاستغراب)
رواية (موسم الهجرة إلى الشمال)
للطيب صالح مثالاً

د. موسى خابط القيسيّ
جامعة بابل– كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة

ملخص البحث

يتناول البحث موضوعة (الاستغراب) بوصفه دراسة معاصرة لـ(الآخر) الغربي من منظور (الأنا) الشرقي . ويهدف الاستغراب إلى بناء الذات الإنسانية على وفق هويتها المستقلة ؛ بإعادة قراءة التراث في ضوء قيم البحث العلمي الأصيل، ومن ثمّ مقاربة الثقافة المركزية الغربية للكشف عن كيفية تشكّل الوعي الغربي واحتوائه بداية ونهاية .

توزع البحث . بعد مقدمة . إلى مبحثين :

المبحث الأول (تنظيري) : اشتمل على مفهوم الاستغراب اللغوي والاصطلاحي ، وتضمن نبذة موجزة عن نشأته وتطوره ، وتضمن أيضاً دراسة البنية للكشف عن المبدأ التنظيمي الذي يوجه الاستغراب وطريقة تشكله ، ثم ختم هذا المبحث ببيان كيفية استقبال الثقافة العربية لموضوعة الاستغراب .

والمبحث الثاني (تطبيقي) : إذ اختيرت رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح مثالاً لمفهوم الاستغراب حاول البحث من خلالها تصنيف النص الروائي إلى ثلاث بن وهي : البنية الجنسية ، والبنية الزمانية ، والبنية المكانية .

وأعقبتها خاتمة لخصت نتائج البحث التي كان من أهمها أن الاستغراب مشروع للنهوض الثقافي لإيقاظ الأمة من غفوتها وسباتها ؛ إذ يتطلب جهداً مؤسساتياً دولياً ، وأثبت الاستغراب أن الذات لا يمكنها التحرر إلا إذا تحولت من موضوع للدراسة إلى ذات عالمة دارسة للآخر . وقد شكلت الرواية المدروسة مساهمة أدبية مميزة في دراسة

العلاقة بين الشرق والغرب عموماً واكتنازها بدلالات استغرابية خاصة أهمها تنوع الاستبداد أو القمع إلى نوعين : قمع داخلي عبر ثقافة الموروث التعسفية ، وقمع خارجي تمثل بالاستبداد الغربي ،وهناك علاقة جدلية بينهما .

The form and meaning of (westernism) in (The Season of immigration to the north) A novel by AL-Teib Salih As an example

The paper deals with the concept of(westernism) as a modern study for the (other) western described by the (self) eastern. Westernism aims to build the human self according its independent identity , by re-reading of the heritage in the light of the values of original scientific research, and then by approximating the central western culture to explore the western awareness covering its beginning and end.

The paper is of two parts:

The theoretical part: which consists of the concept of westernism, its establishment and development, a study of its structure to discover the organizational principle by which it is directed and formed and how the Arabic culture receives it.

The practical part : The novel (The Season of immigration to the north) by Al-Teib Salih was chosen as an example for the concept of westernism as it is classified into three structures: gender, time, and place.

The final section of the paper sums up the results of the research and the most important one is that the westernism is a project for the cultural renaissance which

and west as it includes a diversity of western symbolic figures for dictatorship and suppression that are classified into two types: internal suppression which is inherited and external coming from western dictatorship , and those are controversial .

demands an institutional and worldwide effort.Also, westernism confirms that the self cannot be free only if it changes from being as subject for the study to quite knowledgeable for the other. Moreover, the chosen novel was a recognized work to study the relation between east

المقدمة

تستأثر دراسة الآخر بمساحة رحبة وقبول حسن في المنجز النقدي الأدبي المعاصر ، وتزداد أهمية هذه الدراسة بازدياد أهمية الآخر المدروس . ولعل تلك الأهمية تصل ذروتها حينما يتعلق البحث بشطري العالم : الشرق والغرب ، أو بجزء منه .

ومن هنا تبرز أهمية البحث في (الاستغراب) بوصفه محاولة لدراسة الآخر / الغرب من موقع الأنا / الشرق ، أو هو مشروع لتحرير الذات العربية ، أو تحقيق انتمائها لهويتها المستقلة وتحويلها من موضوع دائم للدراسة العربية إلى ذات عارفة ودارسة للغرب .

فالغرب يرى ذاته ظاهرة فريدة متعالية ومطلقة لا تخضع لفواعل ثقافية خارجة عنه ، بحيث لا يمكن تعليل ظهورها إلا بأسباب خاصة به ، أو بأسباب تتعلق بمركزيته الثقافية الشاملة .

وبناء على تلك الرؤية تشكلت صورة الشرق لديه طبقاً لشروط (لا معرفية) خارجة عن إرادة الشرق المغيبة ، أو وفقاً لرغباته السلطوية ونزواته الاستبدادية ، وانبثقت من جراء ذالك تقاطبات ضدية تحكي ملامح الآخر الشرقي في المخيال الغربي ، من مثل : نحن / هم ، والأعلى / الأدنى ، والرقي / الانحطاط ، والتحول / الثبات .

وهكذا تنامى الشعور الغربي بالتفوق إلى جانب النظرة الدونية حيال الشرق . وقد ألقت هذه العلاقة المتوترة بإشكالاتها المتعددة على مشهد العلاقة بين الطرفين ، وصلت إلى مرحلة الاستعمار والاستعباد ،ثم أعقبتها

مرحلة الهيمنة الثقافية والمعرفية وجميع مناحي الحياة المتعددة.

ويأتي هذا البحث (الاستغرابي) محاولاً الكشف عن بنيات هذه العلاقة الكونية ومقاربة محدداتها والأنساق الموجهة لها والنتائج المترتبة عليها في ضوء دراسة ثقافية ، اختارت . بعد مهاد نظري . رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح حقلاً تطبيقياً لها .

ومعلوم أنها من الروايات العربية الرائدة التي تناولتها أقلام متعددة ، ولكن البحث قاربها . أو هكذا يحسب . من زاوية اشتغال جديدة هي (الاستغراب) ؛ لاعتقاده بأنها تنطوي على تصور رائع لعلاقة الشرق بالغرب ، إذ استطاعت أن تشتبك اشتباكاً حقيقياً مع الواقع التاريخي لهذه العلاقة وعارضت حركة الإنسان في شطري العالم ودخلت معه في جدل.

المبحث الأوّل:

مهـــاد نظـــري فـــي الاســـتغراب (Occidentalism): [١]المفهـوم. البنيـة. التقبل

١.المفهوم: من أجل الكشف عن مفهوم (الاستغراب) وتكثيف الضوء على دلالاته، وإكساء مسار البحث مرونة وانسيابية في الوصل إلى ما يبتغيه البحث، نحاول أولاً تحديده في اللغة والاصطلاح.

أ. المفهوم اللغوي للاستغراب:

إن كلمة (استغراب) مصدر للفعل (استغرب) والمعنى طلب الغرب، وأصله فعل ثلاثي(غَرَبَ) مزيد بثلاثة أحرف: الهمزة والسين والتاء، كما في (استغفر): طلب المغفرة. و"أَغْرَبَ في ضَحِكه، واسْتَغْرَبَ، وكأَنه من الغَرب البُعْدِ"[٢]. ويقال: اغرُب عني، أي تباعَد، والغربُ تقابل الشرق، وإغتَرب وتغرَّبَ: نزح عن الوطن[٣]. والمعاني المتقدمة للاستغراب تقطع بنا مسافة مقبولة نحو مفهومه الاصطلاحي.

ب. المفهوم الاصطلاحي للاستغراب:

لا يبدو أن هناك تعريفاً مستقراً، أو دلالة قارة للاستغراب، فهو فضلاً عن كونه لا يقترن بزمن أو مكان معينين، أو بنمط ثقافي من دون آخر، فإن الاستغراب من المفاهيم النقدية المعاصرة التي لم تكتسب تجربته بعد الصلابة الكافية والصرامة المنهجية المتأتية من طول الممارسة وسعة مساحة الاشتغال النقدي.

ويمكن الإشارة إلى دلالتين متمايزتين في تعريف الاستغراب، الدلالة الأولى: تشير إلى حقل من البحث أو التأليف أو الترجمة يُعنى بدراسة الحضارة الغربية من خارجها، مما يجعله حقلاً مقابلاً للاستشراق كما مارسه

الغربيون في دراسة الشرق من زوايا مختلفة[٤].

وهذه الدلالة تحققت منذ عصر الفتوحات الإسلامية لبلدان الغرب الأوربية في العصر الأموي، حينما فُتِحت إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا، وفيها استوعب المسلمون علوم اليونان والرومان وأعادوا قراءتها وأضافوا إليها قبل أن يُدفع بها إلى العالم الغربي، لتشكل الأساس والمنطلق في نهضته الحديثة[٥]. واستمر ذلك إلى عصر النهضة العربية، التي كان أبرز روادها رفاعة الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣م) – في كتابيه (مناهج الألباب) أو في (تلخيص الإبريز)- الذي يُعدُّ أباً للنهضة العربية الحديثة[٦].

ولعلّ القارئ يجد في الدلالات المتقدمة تعميماً يصعب معه تشكيل خصوصية وسمات متميزة تنحصر في الاستغراب، فشأن جميع الدول – فضلاً عن الأفراد- الإفادة علمياً وثقافياً من الدول المتقدمة. ولكن يمكن عدّها إرهاصات معرفية تراكمية أسهمت في تبلور فكرة الاستغراب.

أما الدلالة الأخرى فهي أن الاستغراب حقل لتشكل الصور أو التمثلات حول الغرب بوصفه آخراً للثقافة العربية الإسلامية، فضلاً عن بقية البلدان الشرقية[٧]. وتشكل مقالات الدكتور أنور عبد الملك – باحث مصري أكمل تعليمه في فرنسا وقام بالتدريس هناك- أبرز الإسهامات البحثية التخصصية في صياغة مفهوم الاستغراب في سبعينيات القرن الماضي[٨]. فهو يرى أن دراسة الغرب لا تتأتى من تأليف نصوص تتضمن وصف الغرب أو أحد بلدانها باللغة العربية أو أي لغة شرقية أخرى، وإنما المطلوب عملية جدلية، بمعنى أن كل الجهود التي بُذلت لإقامة ثقافة وطنية وفكر وطني اجتهادي هي جهود بدأت بنقد المطروح من الموروث الثقافي، ثم العمل على إحياء التراث الحي بالتفاعل مع ايجابيات ذلك الذي هو آت من الخارج[٩].

ومن هنا انطلق الدكتور حسن حنفي لتأسيس علم جديد سمّاه (علم الاستغراب)[*] فـ"الاستغراب هو الوجه الآخر والمقابل بل والنقيض من ((الاستشراق)) فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا(الشرق) من خلال الآخر(الغرب) يهدف علم الاستغراب إذن إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظة عند الآخر"[١٠]. أو أن الاستغراب ممارسة نقدية معرفية لحضارة الغرب طبقاً للمنظور الشرقي.

وبذلك يكون مفهوم (المستغرب) هو الباحث العارف الذي يدرس(الآخر) الغربي من موقع(الأنا) الشرقي. ولا تتحقق هوية المستغرب الأصيل، مالم يمتلك ذاتاً معرفية حرة وقادرة على أن تتعامل مع الغرب بوصفه موضوعاً للدرس والتحليل والتأمل.

وأما الباحث الذي يتناول الغرب برؤية غربية – أي وفقاً لثنائية: تابع/ مهيمن – فإنه يمارس التغريب وليس الاستغراب.

٢. البنية:

يتفق البحث في أن البنية "تصور تجريدي من خلق الذهن وليست خاصية للأشياء فهي نموذج بقيمه المحلل عقلياً ليفهم على ضوئه الشيء المدروس بطريقة أفضل وأوضح"[١١]. ومن خلال البنية يمكن الكشف عن الإطار التنظيمي الذي تشكل على وفقه موضوع البحث.

والاستغراب نوع من أنواع دراسة الآخر(الغرب) وتكمن أهمية دراسة الآخر في أن(الأنا) لا تُحدد إلّا عَبر(الآخر) سواء تعلق الأمر بالفرد أو بالجماعة، ولذلك فإن أي مشروع للمستقبل يبنيه الإنسان لابد من أن يُخذ فيه بعين الاعتبار بصورة واعية أو لا واعية فعل(الآخر) أو ردود فعله، ولولا وجود(الآخر) لما كان هناك تفكير بالمستقبل: فنحن إنما نُفكر في المستقبل لأن شيئاً ينافسنا في حاضرنا، يهددنا، أو يستهوينا، أو يتقدم علينا[١٢].

ولقد فطِن الغرب لهذه القضية مبكراً، وذلك بأن صنع من الشرق آخرَ لأناه، واتخذ منه موضوعاً لذاته، تلبية لطموحاته. فمنذ زمن بعيد والشرق يمثل نسبة إلى الغرب الآخر الأكثر قرباً، الآخر الأكثر مقاومة، إنه الآخر بامتياز[١٣]. وهكذا "صنع الغرب مركزيته الأثنية والثقافية طبقاً إلى الآخر المختلف أثنياً وثقافياً، فإن كان الآخر اختراعاً تاريخياً فقط كان ضرورياً أيضاً وشرطاً لوجود مجتمع الـ(نحن)"[١٤] وصارت فكرة الشرق شرقاً والغرب غرباً جزءاً لا يتجزَّأ من تفكير الغربيين[١٥].

وتأسيساً على ما تقدم أضحى الغرب هو منتج القِيم الإنسانية، والمحدد الوحيد لمسار انتقال جميع الثقافات من البربرية إلى المدنية، وواضع معايير التقدم والتخلف[١٦]. ونتيجة لهذا، لم يَعُد الشرق "كما هو، بل الشرق كما شُرْقِن"[١٧] بطريقة أبوية استبدادية، أو بممارسات شوفينية توجهها سلطة معرفية متحيّزة موضعت الشرق في مراتب دونية، استجابة لرؤيتها الاستعلائية.

وقد شكلّ الاستشراق – في جانب كبير منه – المنظومة الثقافية العالمية التي اطّلعت بهذا الدور، وأخذت على عاتقها التنظير والتمهيد لقدوم الهيمنة الغربية الاستعمارية إلى الشرق.

ويؤصل أحد الباحثين الغربيين للنظرة الغربية الدونية بإزاء الشرق، ولاسيما العربي المسلم منه، وما نجم عنها من اقصاء واستلاب واحتلال، إلى أنها استمدت جذورها من بعيد، من لحظة ظهور الخطاب الحقود الذي تبنته الكنيسة الكاثولكية إبان الحروب الصليبية قبل ما يقرب من ألف عام[١٨]. وهي لحظة تاريخية دموية لما تزل عالقة في الذاكرة

الإسلامية، حيث كان الإفراط فيها بالقتل وحب الانتصار بأي ثمن يهيمن على كل ما عداه عند الصلبيين.

ولما كان الغرب يعمل باستمرار على طمس جميع المحاولات لدراسته وعدم السماح بذلك[١٩]، خوفاً على مستقبل مركزيته الثقافية وهيمنته الكونية، و"لأن الشرق بذاته لم يستنطق الغربَ يوماً ولم يضعه موضع شك"[٢٠] ولكي يستطيع الشرق أن يتحول من كونه موضوعاً للدرس إلى (ذاتٍ) تدرس (الآخر) وتتمكن من الإفلات والتحرر من قبضة المركزية الغربية وهيمنتها، ولاسيما المنظومة الاستشراقية، من أجل ذلك كله برزت الحاجة والاقتضاء الملحين لظهور الاستغراب.

ولقد كان كتاب (التراث والتجديد)[*] نواتاً وقاعدة تأسيسية انطلق منها المؤلَف الضخم (مقدمة في علم الاستغراب). فـ"التراث هو نقطة البداية كمسؤولية ثقافية وقومية، والتجديد هو إعادة تفسير التراث وفقاً لحاجات العصر"[٢١]. وكرّس الكتاب اهتمامه على محاولة بناء الذات العربية أولاً بوصفها قيمة عليا وشرطاً مسبقاً للنهوض والتحرر "فالثورة الصناعية والزراعية في البلاد النامية لا تتم إلا بعد القيام بثورة إنسانية سابقة عليها وشرط لها"[٢٢]. إن الانشغال بتحقيق (الأنا) يعني تحقيق هوية مستقلة لها ملامحها الخاصة بها، وهي في الآن نفسه تنطوي على محاولة لتحديد نوع العلاقة مع الآخر، فإذا "كان البحث عن الهوية يأتي عن طريق تحديد الصلة بين الأنا والآخر فإن عملية (التراث والتجديد) هي الكفيلة بتحقيق ذلك لأنها اكتشاف الأنا وتأصيلها وتحريرها من سيطرة الثقافات الغازية [...] وتنقلها من وضع التحصيل والنقل إلى وضع النقد والخلق والابتكار"[٢٣].

والاستغراب هو محاولة الانتقال من الاتباع إلى النقد والإبداع، ومن النقل إلى الخلق والعقل.

وقد نشأ علم الاستغراب في مواجهة التغريب الذي امتد أثره إلى الحياة الثقافية، وإلى أساليب الحياة اليومية ونقاء اللغة وهدد استقلالنا الحضاري، فكل كلمة عربية تتجاوز عقدة نقصها بإلحاقاها بكلمة غربية وضاعت اللغة الفصحى وازدوجت مع العامية، وغاب الزي الوطني وبدأ رد الفعل بالزي الإسلامي واللحية والجلباب في مظهر من مظاهر التمسك بالهوية[٢٤]. ووقف الناس أمام السفارات طلباً للهجرة إلى الغرب، وضاع احترام المواطن واصبح الاستيراد هم التاجر والمستهلك[٢٥].

ويرى حنفي أن الاستعمار الغربي قد عمد إلى إشاعة ثقافة التغريب في البلدان العربية المستعمرة مثلما فعل الاستعمار الفرنسي في استهداف ثقافة دول المغرب العربي في محاولة لطمس لغتها ومحو تاريخها. وإذا

كان هناك ثمة انجازات للمستعمِر في البلاد المستعمرَة، فهي إنما تصب في مصلحته أولاً مثلما فعل الاستعمار البريطاني حينما أنجز حفر قناة السويس في مصر لتأمين أقصر الطرق إلى الهند وبقية الشعوب الشرقية[٢٦].

إن التحدي الأكبر بإزاء نهوض الأمم الشرقية النامية ولاسيما العربية يكمن في كيفية "المحافظة على الهوية دون الوقوع في مخاطر الانغلاق على الذات ورفض كل مساهمة للغير، وكيف يمكن مواجهة ثقافات العصر دون الوقوع في مخاطر التقليد"[٢٧].

والاستغراب ينهض بمهام كبرى وخطيرة، أهمها القضاء على المركزية الأوربية؛ ببيان كيف أخذ الوعي الأوربي مركز الصدارة عبر التاريخ الحديث داخل بيئته الحضارية الخاصة، فمهمة هذا العلم الجديد رد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية بعد أن انتشر خارج حدوده أبان عنفوانه الاستعماري من خلال سيطرته على أجهزة الإعلام ودور النشر ومراكز الأبحاث العلمية[٢٨].

وتبعاً لذلك تكون مهمة الاستغراب "هي القضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة"[٢٩] فطالما "أن الثقافة الغربية هي المركز والثقافات اللاغربية في الأطراف ستطل هذه العلاقة أحادية الطرف، من المركز إلى الأطراف، علاقة المعلم بالتلميذ، والسيد والعبد"[٣٠].

وإذا كان الاستشراق متحيزاً للوعي الأوربي فإن علم الاستغراب أقرب إلى الشعور المحايد لكونه لا يبغي السيطرة أو الهيمنة بل يبغي التحرر من أسار الآخر[٣١] ولذلك "يظهر (الاستغراب) كدفاع عن النفس، وخير وسيلة للدفاع الهجوم، والتحرر من عقدة الخوف تجاه الآخر، وقلب الموازين رأساً على عقب، وقلب المائدة في وجه الخصوم"[٣٢].

ويحاول حنفي أن يلخص نتائج الاستغراب بالسيطرة على الوعي الأوربي أي احتواؤه بداية ونهائية، نشأة وتكويناً وبالتالي يقل ارهابه لأنه ليس بالوعي الذي لا يقهر، ودراسة الوعي الأوربي على أنه تاريخ وليس خارج التاريخ، والقضاء على اسطورة الثقافة العالمية، وإفساح المجال للإبداع الذاتي للشعوب غير الأوربية وتحريرها من عقدة النقص، وإعادة كتابة التاريخ بما يحقق أكبر قدر ممكن من المساواة في حق الشعوب[٣٣].

ومن المناسب الإشارة إلى أن عدد صفحات منجز حنفي (مقدمة في علم الاستغراب) قد بلغت ستمائة وثلاثون صفحة، توزعت على ثمانية فصول، بحثت في جذور الاستغراب ومفهومه ونتائجه. ثم تناولت الوعي الأوربي واحتواؤه والتعامل معه على قدم المساواة.

٣. التقبل:

إن تلقي الثقافة العربية لمنجز حنفي في الاستغراب مسألة خلافية تنازعتها رؤيتان متصارعتان تمحورت حول ثنائية التشكيك/ القبول، وارتكازاً على ذلك توزعت الثقافة العربية بإزاء الاستغراب إلى فئتين:

أ. الفئة الأولى: وهي الفئة الأوسع مساحة إذ تشمل الخط المشكك بجدوى الاستغراب وبكيفية أداءه ومدى موضوعيته وترتيب أولياته ونتائجه. فمنهم من يرى "أن السمات المميزة التي يسبغها حنفي على الاستغراب هي بحد ذاتها نتيجة تحيّز ثقافي ضد المستشرقين، مما يخلق مأزقاً منهجياً منذ البداية"(٣٤). والمأزق الحقيقي ليس في وقوع الاستغراب أو غيره في التحيز – فهو سمة أساسية لكل جهد إنساني – وإنما في عدم الوعي بوجود ذلك التحيّز(٣٥).

ومنهم من يعتقد أن دراسة للغرب بعلم، لم تكتمل من جهة عناصرها أو شروطها، والمسألة الأهم يجب أن تتركز على سبل تهيئة الذات (الأنا) وكيفية تحقيقها، أهو يقتصر على البحث عمّا طمرته الأزمنة من قيم ومضامين عند السلف؟ أم هو في إزالة الطابع القدسي عن تلك المضامين؛ بغية إقحامها في سجال ونقاش عقلاني لا يحدّه نصّ، ولا يمنعه قول قدسي؟(٣٦).

ومنهم من يهوّن عمل الاستغراب، ويراه منازلة الغرب بالكلمات بدلاً من مواجهته في الواقع وبالواقع، أو هو مجالدة إيديولوجية مع الآخر/ الغرب الذي هو الند والغريم، ولا يمكن أن يكون الصديق والحليف، وهو لا يتنوع أو يتباين لأنه مطلق النقيض، وهو الشيطان الرجيم الذي لم نتعلم شيئاً منه سوى الثورة عليه، ولم نرث عنه سوى الرغبة المشتعلة في الثأر منه، فالاستغراب هو النقيض العدواني للاستشراق، أو هو أخذاً عن الآخر ورفضاً عدوانياً له في وقت واحد(٣٧).

ب. الفئة الأخرى: تتضمن الخد المؤيد لثقافة الاستغراب عموماً أو لمشروع حنفي الاستغرابي خصوصاً، فمنهم من ينتصر للاستغراب بوصفه ضرورة عصر ملحة، فدراسة العرب يجب أن تكون قراراً واعياً ومقصوداً من الدول العربية وجامعاتها الأكاديمية، وأن يتضمن هذا القرار انشاء مراكز ومعاهد ومكتبات للدراسات الغربية وتكوين جيل جديد من المستغربين العرب لدراسة المجتمعات والتاريخ والثقافات الغربية(٣٨).

ومنهم من يؤكد على أن مشروع حنفي مقاربة علمية ضخمة للفكر والواقع، وأن "حنفي مفكر صاحب الفلسفة العلمية لا الفلسفة النظرية ومشروعه هو مشروع للتغيير لا للتبرير، يعيش التاريخ في وجدانه لا في خياله، يعيشه كتجربة وعمل لا كرغبة وأمل"(٣٩).

والرأي، أن بإمكان ثقافتنا العربية أن تكون منفتحة وإيجابية في استقبال منجز حنفي والثقافة الاستغرابية عموماً، ولاسيما أنها تتميز بالصدور عن وعي نقدي بما سبقها من دراسات في هذا المضمار، ولذا فهي تتمتع بشرعية كبيرة كونها تسعى إلى الانعتاق من الدوران في فلك الثقافة الغربية الاستشراقية، والافلات من ثقافة التجهيل والسيطرة المستمرين بإزاء الشرق، ولا ينبغي أن يبقى مشروع ثقافي عالمي مثل الاستغراب مقتصراً على فرد أو بعض أفراد، وإنما يجب أن ينهض على جهود مؤسسات فكرية واسعة تعي جيداً حجم التحديات الكبرى حيال الواقع المعيش وأن تعمل بوعي علمي حواريٍّ ومنفتح يتيح لها تعديل المشروع وتطويره وفقاً لأهداف بحوثها وموضوعاتها التخصصية المتعددة في إطار هوية مستقلة.

ويل مساهمة في التغيير والتحول الإيجابي للشرق .

المبحث الثاني: الإنجاز

ينهض هذا المبحث على محاولة لتمثُّل مفهوم (الاستغراب) تطبيقاً؛ بالكشف عن بنياته الثقافية وطرائق تعريته للأنساق الموجهة لطبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، ودوافعها، وتشكلاتها، وما تمخض عن ذلك من نتائج ووعي بخطورة الواقع وتحديات المستقبل، وضرورة العمل على وفق منهج علمي في تحديد العلاقة مع (الآخر).

وقد جرت محاولة التمثل تلك برصد أهم البنى المشكلة للمنجز الروائي المدروس وما نجم عنها من دلالات متعددة، وهي:

أولاً: البنية الجنسية:

تبدو رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) لقارئها كأنها تسبح في فضاء البنية الجنسية، فتجنيس العلاقات بين مختلف شخوصها ثيمة أساس ونواة مركزية تشد أطرافها بسبب أو نسب.

إن القراءة الشاملة للرواية تكشف عن أن التنظيم الأساس للبنية الجنسية قد تشكل من رافدين، أحدهما من الغرب، والآخر من الشرق، بلحاظ أن كلا الرافدين قد اصطبغا بلونين متمايزين، ليصبح هذا التدرج اللوني واختلافه – كما سنرى– وفياً لما كانت تتغياه الرواية.

وبناءً على ما تقدّم تتألف البنية الجنسية في الرواية من:

٤. البنية الجنسية في الغرب: تقوم هذه البنية على سرد أحداث جنسية متفرقة وقعت في الغرب، كان بطلها (مصطفى سعيد)(*)، وهذه البنية تتفرع إلى قسمين:

ت. البنية الجنسية العامة:

إن الارهاصات الأولى في نشأة الرافد الغربي بدأت حينما وصل بطل الروايةسعيد إلى القاهرة في بداية القرن العشرين، قادماً من

قريته في السودان ليكمل دراسته الثانوية هناك، بعد أن أثبت في دراسته الأولية نبوغاً وذكاءً فريدين، فضلاً عن قوة لغته الانكليزية؛ مما دفع ناظر مدرسته في السودان الانكليزي (مستر ستكول) أن يوصي به معارفه في القاهرة (مستر روبنسن) وزوجته اللذين كانا في انتظاره لإبداء المساعدة لهذا العبقري القادم[٤٠].

وفي ذلك يروي سعيد سفره إلى القاهرة: "وصلت القاهرة فوجدت مستر روبنسن وزوجته في انتظاري، فقد اخبرهما مستر ستكول بقدومي. صافحني الرجل وقالي لي: كيف أنت يا مستر سعيد؟ فقلت له: أنا بخير يا مستر روبنسن. ثم قدمني إلى زوجته"[٤١].

وتبدأ بعد ذلك نقطة التحول فجأة عند سعيد إذ يروي: "وفجأة أحسست بذراعي المرأة تطوقاني، وبشفتيها على خدي في تلك اللحظة، وأنا واقف على رصيف المحطة وسط دوامة من الأصوات والأحاسيس [...] ورائحة جسمها رائحة أوربية غربية، تدغدغ أنفي، وصدرها يلامس صدري، شعرت وأنا الصبي ابن الاثني عشر عاماً بشهوة جنسية مبهمة لم أعرفها من قبل في حياتي"[٤٢].

إن هذا هو اللقاء الأول في الرواية بين شرقي وغربية، والتماس الأول بين اللون الأسود ولون آخر. وقد ترك هذا اللقاء والعناق أثراً عميقاً في نفس سعيد، فهو لايفتأ يذكرها مراراً: "كانت مسز روبنسن ممتلئة الجسم [...] وكنت أنظر إلى شعر أبطيها وأحس بالذعر[...] لعلها كانت تعلم أنني اشتهيها"[٤٣] ويصفها في موضع آخر: "امرأة أوربية، مثل مسز روبنسن تماما، تطوقني ذراعاها، يملأ عطرها ورائحة جسدها أنفي"[٤٤].

لقد بدت صورة المشهد وكأن صياداً قد شمَّ من كثب رائحة الطريدة التي ستعبر به زمن الجوع، ولكنه مازال شبلاً، وأنياب الافتراس لما تكتمل طولاً وحدةً، ولذلك يسترجع شيئاً من الواقع فيقول: "لكنها كانت عذبة، أعذب امرأة عرفتها. تضحك بمرح وتحنو عليّ كما تحنو أم على ابنها"[٤٥].

وفي اثناء دراسته في القاهرة "لم يحدث شيء اطلاقاً، سوى أن القربة زادت انتفاخاً، وتوتر وتر القوس. سينطلق السهم نحو آفاق أخرى مجهولة"[٤٦].

وما إن وطئت قدما سعيد أرض الغرب (لندن) حتى قُرِعَت طبول الحرب بين وافد (شرقي) تشكو نفسه الظمأ، وبين غربيات متنعمات ذوات حسن وثقافة ورواء، فكانت البداية مع (آن همند) أبوها ضابط في سلاح المهندسين، وأمها من العوائل الثرية في (ليفربول)، وهي تدرس اللغات الشرقية في (اكسفورد) فتاة حية ذات عينين تبرقان بحب الاستطلاع، وكانت تحن إلى مناخات استوائية، وشموس قاسية، وآفاق أرجوانية، فرأت في سعيد رمزاً لكل هذا الحنين[٤٧].

وخلافاً للمألوف كانت البداية يسيرة، فما إن بدأ الصراع حتى انتهى باستسلام الخصم فـ(آن همند): "كانت صيداً سهلاً [...] قضت طفولتها في مدرسة راهبات. عمتها زوجة نائب في البرلمان"[٤٨]. وكانت النتيجة على لسان سعيد: "حولتها في فراشي إلى عاهرة"[٤٩]. وإذا كان الرجل المستعمِر في المجتمع الأبيض يرخي العنان لجامح غرائزه وشهواته ما إن تطأ قدماه أرض المستعمرة، فإن نظيره يفعل الرجل المستعمَر، إذا ما قيضت له الأقدار أن يجيء إلى الدولة المستعمرة؛ لأنه يريد أولاً أن يثأر لنفسه ولرجولته، ولأنه يعاني ثانياً في الكثير من الحالات من كبت جنسي شديد ناشئ عن الايديولوجيا الأبوية الحنبلية التي تشد على خناق العلاقات بين الرجل والمرأة في مسقط رأسه[٥٠].

ويحدد سعيد سر هذا الانتصار، والانتصارات اللاحقة بأن "ثمة بركة ساكنة في أعماق كل امرأة. كنت أعرف كيف أحركها"[٥١]. وكانت نتيجة القصة أن عثروا على (آن همند) في أحد الأيام "ميتة انتحاراً بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة [...] ليس فيها سوى مستر سعيد لعنة الله عليك"[٥٢].

ولعلّ هذه البداية المظفرة في نظر سعيد منحته زخماً كبيراً للتوغل في أرض الخصم (الغرب)، فكانت (شيلا غرينود) صفحة أخرى من صفحات الصراع المستحكم، فهي تعمل في مطعم في (سوهو) نهاراً، وتواصل دراستها في (البوليتكيل) ليلاً، وكانت حلوة المبسم والحديث، اغراها سعيد بالهدايا والكلام المعسول[٥٣] وصار يلاعبها حتى تمكّن منها: "دخلت غرفة نومي، بتولاً، وخرجت منها تحمل جرثوم المرض في دمها. ماتت دون أن تنبس ببنت شفة. ذخيرتي في الأمثال لا تنفذ. أليس لكل حالة لبوسها، شن يعرف متى يلاقي طبقة"[٥٤].

وهكذا بدت السادية المدمرة تشكل ملحماً بارزاً في هذا الصراع وتطيح بالضحايا واحدةً بعد أخرى في ظل نشوة عارمة تغمر المنتصر، وهو يردد نشيد النصر (شن يعرف متى يلاقي طبقة).

وليس للحرب عند سعيد أخلاق ولا خطوط حمراء فـ(إيزابيلا سيمو) ضحية أخرى تبلغ من العمر أربعين سنة – تكبر سعيد بخمس عشرة سنة – متزوجة من طبيب جراح ناجح وأم لبنتين وابن، قضت أحد عشر عاماً في حياة زوجية سعيدة تذهب للكنيسة صباح كل أحد بانتظام وتساهم في جمعيات البر[٥٥].

ولم يشكل ما تقدم مانعاً من الدخول مجدداً إلى حلبة الصراع، فهذا سعيد يسرد أحداث هذه المنازلة: "خرجتُ من داري يوم سبت اشمشم الهواء، وأحس بأنني مقبل على صيد عظيم. وصلت ركن الخطباء في حديقة هايد بارك. كان غاصاً بالخلق. وقفت عن بعد أستمع إلى خطيب من جزر الهند الغربية

يتحدث عن مشكلة الملونين. استقرت عيني فجأة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب، فيرتفع ثوبها إلى ما فوق الركبتين، مظهراً ساقين ملتفتين من البرونز"[٥٦] فهتف سعيد في نفسه: "نعم هذه فريستي. وسرت إليها، كالقارب يسير إلى الشلال"[٥٧].

وبعد أن دعاها إلى شراب، وقبلت بعد تردد، سألتهُ عن بلده، فروى: "لها حكايات ملفقة عن صحاري ذهبية الرمال، وأدغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها. قلت لها ان شوارع عاصمة بلادي تعج بالأفيال والأسود، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة. وكانت تستمع إلي بين مصدقة ومكذبة"[٥٨].

وبعد صبر وأناة ومراوغة وتزييف كانت غرفة سعيد تكتب نهاية الأحداث ففي "قمة المأساة صرخت بصوت ضعيف: ((لا، لا)). هذا لا يجديك نفعاً [...] انني اخذتك على [حين] غرة [...] وانفجرت هي ببكاء ممض محرق واستسلمت أنا إلى نوم متوتر محموم"[٥٩].

وهكذا توالت الفتوحات كما يحسبها سعيد فهو يأخذ (الآخر) على حين غرّة ويُجهز عليه غير مبالٍ بتضرعه أو بكائه، لتستقر الصورة بين آخذ منتقم وبين مأخوذ يلوذ بالصراخ والعويل، أو بين ثائرٍ على عقدة نقص (الأنا) وبين جبروت (الآخر) وغروره.

ولا ريب في أن نجاح الغزوات الجنسية من فتيات غربيات ذوات حسن ومتعة بفضل ثقافتهن والتزامهن الديني (المسيحي) وادراكهن لم يكن لولا عمق المعرفة التي امتلكها سعيد وتملّك بها: "فالمعرفة تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة، وهكذا في حركة جدلية للمعلومات والسيطرة متنامية الأرباح باستمرار"[٦٠].

ولم تنفرد البنية الجنسية العامة بوجودها في الغرب، بل رافقتها بنية أخرى هي البنية الجنسية الخاصة.

ث. **البنية الجنسية الخاصة:**

شغلت هذه البنية جزءاً يسيراً من مساحة (الرواية) الكلية، ولكنها تضمنت دلالات أوسع وأعمق من سابقتها؛ وذلك لاختلاف شخصية (الصراع) الجديدة وتميزها عن نظيراتها (طريدات سعيد).. إنها (جين مورس).

ففي الوقت الذي تتوالى فيه الانتصارات وتتلاحق الغزوات، مثلما يحسبها سعيد ويصرّح بذلك مراراً بوصفه غازياً للغرب ومستعمِراً له[٦١]، يجد نفسه منخرطاً (لا إرادياً) في اتون معركة ضارية كادت تبتلعه وتغيِّب سجل فتوحاته.

فبينما كان سعيد مخموراً وحوله فتاتان يتفحش معهما، أقبلت (جين مورس) ووقفت أمامه ونظرت إليه بصلف وبرود وفتح فمه لكي يتكلم ولكنها ذهبت، إذ ذاك قال لصاحبتيه: من هذه الأنثى؟[٦٢].

ولعلها المرّة الأولى – في رحلة سعيد – التي تقتحم فيها (أنثى غربية) عرين هذا (الذكر الشرقي) لتلقي عليه نظرة تحد وازدراء فتشعره بأن منازلة قادمة مفارقة سيكتب الغرب تاريخها – وليس الشرق– هذه المرّة.

واستتباعاً لذلك يذكر سعيد: "وفي المرّة الثانية، قالت لي جين مورس: أنت بشع. لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك. وفتحت فمي لأتكلم لكنها ذهبت"(٦٣). إن هذا اللون من الاجراء يستفز الخصم سعيد ويغريه بقبول المنازلة، ويبعث فيه رغبة شديدة في المتابعة والتقصي. وكان لها ما كانت تصبو إليه، فهذا سعيد يُقسم في تلك اللحظة أنه سيتقاضاها الثمن في يوم ما(٦٤).

ولبث سعيد يطاردها ثلاثة أعوام من دون الظفر بشيء، وكان "كل يوم يزداد وتر القوس توتراً، قربي مملوء هواء، وقوافلي ظمأى، والسراب يلمع أمامي في متاهة الشوق، وقد تحدد مرمى السهم"(٦٥).ولم يكن من بد فقد ارغمته على الزواج بها: "تزوجتها، غرفة نومي صارت ساحة حرب. فراشي كان قطعة من الجحيم. أمسكها فكأنني أمسك سحابا، كأنني أضاجع شهاباً [...] أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب، وفي الصباح أرى الابتسامة مافتئت على حالها، فاعلم انني خسرت الحرب مرة أخرى"(٦٦).

ولم تكن (جين مورس) امرأة حرون لم تمكّن زوجها منها فحسب، بل كانت تمارس إزاءه اذلالاً ممنهجاً، إذ كانت "ماجنة في القول والفعل، لا تتورع عن فعل أي شيء، تسرق وتكذب وتغش، ولكنني رغم ارادتي أحببتها ولم أعد استطيع أن أسيطر على مجرى الأحداث"(٦٧).

وأحياناً ينتفض سعيد في وجهها فيصفعها، فتصفعه وتنشب أظفارها في وجهه، وينفجر في كيانها بركان من العنف، فتكسر كل ما تنال يدها، والأدهى من ذلك أنها كانت مومساً تخونه في بيته وتغازل من هب ودب أمام ناظريه، فيستبد به الغضب حتى يصل حافة الجنون و(القتل)، فيدخل في حرب ضروس، ولكن الحرب كانت تنتهي بهزيمته دائماً، وكان أحياناً يبكي من فرط ما يعاني(٦٨).

ويصل به اليأس حداً غير مسبوق: "كنت صياداً فأصبحت فريسة. وكنت أتعذب [...] ولكن الدنيا كلها لا تساوي عندي حبة خردل في سبيلها، أنا الغازي الذي جاءَ من الجنوب، وهذا ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجياً، أنا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك ولكنني لا أبالي"(٦٩).

ولعلّ جسامة هذه الأحداث وطول أمدها كادت تُنسي البطل الغازي الوافد من الشرق مهمته التاريخية في القضاء على التسلط

الغربي وإنهاء أسطورة تفوقه الساحق على الآخر الشرقي، فبعد الفتوحات والغزوات التي حققها سعيد، سجل مسار الخط البياني لإنجازاته هبوطاً مريعاً وانقلاباً عمودياً من القيم الموجبة إلى القيم السالبة. بمعنى آخر أن هناك عودة إلى قبضة الغرب وفرصة جديدة "لأن يشمل بـ((كليته)) المعطيات الثقافية لـ((الآخر))، وإعادة إنتاجها، بما يجعلها تندرج ضمن سياقات المركز، وهو يفكر ويتفكّر في شؤون غيره"[٧٠].

وقد أبدعت الرواية أيما إبداع في رسم بنية حوارية رائعة ومضغوطة، لخصت أبعاد الصراع الخطير بين الشرق والغرب عموماً، وبين سعيد و(جين موريس) خصوصاً، وعملت على تبئير معانيه وكشف دلالاته وفضح أنساقه المضمرة في المشهد الآتي: "ظلت واقفة أمامي كشيطان رجيم، في عينيها تحد ونداء [...] لم أكلمها ولم تكلمني ولكنها خلعت ثيابها ووقفت أمامي عارية. نيران الجحيم كلها تأججت في صدري كان لا بد من اطفاء النار في جبل الثلج المعترض طريقي"[٧١]، ثم "تقدمت نحوها مرتعش الاوصال، فأشارت إلى زهرية ثمينة من الموجودة على الرف. قالت: تعطيني هذه وتأخذني. لو طلبت مني حياتي في تلك اللحظة ثمنا لقايضتها أياها. أشرت برأسي موافقاً. أخذت الزهرية وهشمتها على الأرض وأخذت تدوس الشظايا بقدميها حتى حولتها إلى فتات"[٧٢] وبعدها "أشارت إلى مخطوط عربي نادر على المنضدة. قالت: تعطيني هذا أيضاً [...] أشرت برأسي موافقاً. أخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها"[٧٣].وانتهت بأن "أشارت إلى مصلاة من حرير أصفهان أهدتني اياها مسز روبنسن عند رحيلي من القاهرة [...] قالت تعطيني هذه أيضاً ثم تأخذني ترددت برهة [...] وهززت رأسي موافقاً، فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر متلذذة إلى النار تلتهمها"[٧٤].

وبعد أن أخذت منه كل شيء نفيس: "مشيت اليها ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لأقبلها. وفجأة أحست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذي. ولما أفقت من غيبوبتي وجدتها قد اختفت"[٧٥].

ولا يبدو خافياً في أن (جين مورس) في هذا المشهد، قد شكلت صورةً وفيةً للغرب وانتماءً عميقاً لهويته، ولاسيما في تعاطيه مع (الآخر) الذي سلبته أشياءه الثمينة ذات الحمولة الحضارية المتعلقة برموز هويته الشرقية. إن معرفة الغرب بأحوال الشرق جعلته "يمارس من خلال هذه المعرفة قوته وهيمنته على الشرق متقمصاً هيئة راع غربي نشط ويسيطر (أو يسيطر لأنه يعرف) على رعية شرقية مستكينة: الغرب فاعل

subject والشرق واقع عليه الفعل **object**"[٧٦].

وبالنتيجة منح سعيد (جين مورس) كل شيء، ولم تزجي له أي شيء، سوى ركلة في مذاكيره؛ تعبيراً عن رغبة الغرب في اخصاء (الآخر) وتأنيثه، فـ"الحضارة الغربية لا تسلم نفسها لطالبها، الآتي من الشرق أو الجنوب، إلا إذا خلعته من تاريخه وقطعته عن ماضيه وجردته من تراثه وفصمته عن شخصيته الحضارية، بله الدينية. الحضارة الغربية لا تقوم إلا على أشلاء الحضارات الأخرى. حضارة حصرية تنفي كل ماعداها لا تقبل حواراً ولا تزاوجاً"[٧٧]. أما مجون(موريس) وعهرها، فهو رمز إلى دعوة الغرب العالمية، فهي تستأثر بسعيد، لكنه لا يستطيع أن يستأثر بها، وهو لها ولكنها للجميع[٧٨].

ويصل الصراع إلى ذروته، فيتمكن الذكر الأسود من الأنثى البيضاء بطريقة غريبة وبنهاية فاجعة، ففي ليلة "كان الجليد يقرقع تحت حذائي وأنا البرد. أين البرد؟ وجدتها عارية مستلقية على السرير، فخذاها بيضاوان مفتوحان [...] في حالة تأهب عظيم للأخذ والعطاء"[٧٩] ثم "اخرجت السكين من غمده [...] نظرت في عينيها فنظرت في عيني وتماسكت نظراتنا واشتبكت، فكأننا فلكان في السماء اشتبكا في ساعة نحس"[٨٠]. وبعدها "رفعت الخنجر ببطء. ببطء [...] وضغطت الخنجر بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين"[٨١].

ومعلوم أن الرواية قد سعت منذ البداية إلى محاولة المطابقة بين شخصية (جين مورس) والغرب، وبالمقابل أيضاً التوحيد بين شخصية سعيد والشرق الذي أراد التحرر والخلاص من سطوة الغرب، وذلك بغزو الغرب جنسياً[*]، فسعيد "كان يقول سأحرر أفريقيا بـ...ي"[٨٢]. وقد تحقق له ذلك في غزوات عدة، ولكنه ما إن التقى بـ(مورس) حتى أناح جمل فتوحاته، ومالت الكفة للغرب من جديد، نتيجة لظهور امكانيات جديدة وآليات متطورة وبها أذاقت (مورس) سعيداً ذلاً وهواناً عظيمين.

وبناءً على ذلك كان لقاؤها الأخير اشتباكاً مصيرياً، ومعركة فاصلة بين الشرق والغرب، صورها الراوي كأنهما (فلكان في السماء اشتبكا في ساحة نحس) كما أطلق سعيد على تلك الليلة بـ"ليلة الحساب"[٨٣]. وفيها نهض الجمل من جديد فكانت له (الغزوة) بأخذها، و(الثأر) لكرامته بقتلها.

لقد كانت تلك اللحظة لحظة امتلاك واغتيال، لحظة تفجر فيها كل الشوق المكنون في صدر سعيد وكل الحقد المكبوت في قلبه، فـ(مورس) كانت عالماً، وسعيد كان عالماً آخر، ولم يكن بين هذين العالمين من سبب

غير الصراع والعنف، ولم يكن هذا الصراع ابن يومه، بل كان من مورثات التاريخ[٨٤].

ولعل القارئ يلحظ أن الرواية قد تبنت رؤية غير متفائلة في أن الغرب يمتلك من القوانين (الأنوية) التي لا يمكن معها أن تقبل غير صوته مفسراً للأشياء؛ مما يجعل الغرب يطلب الاستقرار والحرية وينشد التقدم والرفاهية لشعوبه بالغلبة والقهر والاقصاء والتجهيل للشعوب الأُخر. فإقامة علاقات متوازنة مع (الآخر) – في عُرفه– يعني ديمومة الصراع، وقمع الـ(غير) يعني قطع النزاع. ومع انعدام الحوار والتعايش لا يبقى أمام (الآخر) ثمة خيار سوى المعاملة بالمثل.

٥.البنية الجنسية في الشرق:

ميز النص الروائي بين البنية الجنسية في الشرق من نظيرتها في الغرب؛ وذلك لاختلاف المنظومة الثقافية بينهما، وانعكاس هذا التباين على طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة ودرجة حضور كل منهما في تحديد ارتباطهما وصياغته.

وتضمنت البنية الجنسية في الشرق بنيتين، الأولى: البنية الجنسية السائدة، والأخرى، البنية الجنسية الخاصة.

أ– البنية الجنسية السائدة:

تبوأت هذه البنية مساحة غير واسعة من الرواية بالقياس إلى نظيرتها في الغرب، تمحورت حول شخصيتين أساسيتين، هما: (ود الريس) بوصفه فحلاً بالغ في تجسيد مفهوم (الرجولة) في الشرق: "فقد كان كثير الزواج والطلاق لا يعنيه في المرأة أنها امرأة، يأخذهن حيثما اتفق، ويجيب إذا سُئل: الفحل غير عوان"[٨٥] وهو صاحب مال وبلغ السبعين من العمر[٨٦]، ويذكر الراوي عدداً من "زوجاته دنقلاوية من الخندق، وهدندوية من الغضارف، وأثيوبية وجدها تخدم عند ولده الاكبر في الخرطوم، وامرأة من نيجريا عاد بها بعد حجته الرابعة"[٨٧].

وحين يُسأل كيف تزوج (النيجرية) يقول إنه اجتمع بها وبزوجها في السفينة بين (بورسودان) و(جدة) وتصادق معها، ولكن الرجل توفي في مكة يوم الوقوف على عرفات، وفي أثناء احتضاره قال له: (اوصيك بزوجتي خيراً)، فلم يجد خيراً من زواجها[٨٨]. وكان ود الريس فرحاً بزوجته الأخيرة وأعظم سروره أنها كانت عاقراً، وكان يحكي للناس خصائص أفعاله معها، ويقول: من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج، ولكنه بعد ثلاث سنوات من زواجها – وهو وقت طويل بحساب ود الريس – طلّقها ارضاءً لزوجة جديدة من الكبابيش[٨٩]. وفضلاً عن زيجاته الشرعية، لم تخل حياة ود الريس من مغامرات جنسية صبيانية كان يرويها في المجالس من دون تحرج[٩٠]. وكان أهل البلد يتندرون على من يرضى بزوجة واحدة ويحسبون ذلك خوفاً من زوجته الأولى[٩١].

والشخصية الأخرى (بنت مجذوب) بوصفها امرأة سعى دورها إلى تبئير مفهوم (الأنوثة) في الشرق. وقد ناهز عمرها السبعين عاماً، بعدما تزوجت من ثماني أزواج ماتوا جميعهم، وتركوا لها ثروة ليست قليلة، وكانت مشهورة في البلد يتسابق الرجال والنساء على السواء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرج، وكانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل(٩٢).

وحين تُسأل عن أفضل أزواجها فإن معيارها الوحيد في التفضيل هو الجنس لا غير، ولذلك هي تفضل أحد أزواجها (ود بشير): "علي الطلاق، كان عنده شيء مثل الوتد حين يدخله في أحشائي لا أجد أرضاً تسعني. كان يرفع رجلي بعد صلاة العشاء، وأظل مشبوحة حتى يؤذن آذان الفجر. وكان حين تأتيه الحالة يشخر كالثور حين يذبح وكان دائماً حين يقوم من فوقي يقول: هالله الله يا بنت مجذوب"(٩٣). وكانت تشاطر ود ريس في قناعته بتعدد الزوجات وتحضه على ذلك: "ما بالك، لك عامان وأنت مكتف بزوجة واحدة؟ هل ضعفت همتك؟"(٩٤).

وعمدت الرواية إلى المزامنة في عرض الوجهين (الذكوري والأنثوي) للقرية، ود الريس وبنت مجذوب، بوساطة تكثيف آليات الحوار المباشر وغير المباشر بينهما، وإشراكهما في جغرافية سردية واحدة، لتجلية دلالات الاستبداد الثقافي والقمع الاجتماعي وفضح بنية التسلط الرجولي بإزاء الآخر الأنثوي.

ولقد برز هذا النوع من العلاقة بين الرجل والمرأة بوساطة ثنائيات ضدية متعددة، منها: (الفوقية/ الدونية) و(الآمر/ المأمور) و(السيد/ العبد) و(الفاعل/ المفعول به)...، حتى بدت قيمة المرأة و "وجودها كله يتلخص في ما بين فخذيها"(٩٥). أو هي لا تعدو عن كونها سلعة يلتقطها سائح أو عابر سبيل فيتأبطها ثم يقفل راجعاً إلى بيته فرحاً بما أصاب.

والنص الروائي وظف شخصية بنت مجذوب بعدّها الصوت المعبّر عن حقيقة المرأة الشرقية، وليس عن حقوقها، على الرغم من أنها أدت دور (المرأة المسترجلة) التي تشارك الرجال في سلوكياتهم وتشابههم في صفاتهم وطبائعهم، ومن أهمها الجرأة في طرح الموضوعات الجنسية أمام الرجال والتفاحش في الكلام معهم.

إن اعتماد المنجز الروائي على تقنية سردية واحدة في التوصيل هي تقنية الراوي الوحيد الذي ينقل الحكي، أو يباشره بنفسه لموضوع حساس كالجنس في مجتمع أبوي متخلف وتقديمه على لسان امرأة شرقية أمر متعذر على الراوي بغياب شخصية (المرأة المسترجلة) كونها تتنافى مع التقاليد والأعراف الشرقية؛ ولذلك ظهرت هذه

الشخصية بوصفها قناة سردية تُسعف الراوي في تأمين ما يريد توصيله للقارئ.

وإجمالاً فإن البنية الجنسية العامة اقترنت بالبساطة والاطمئنان والسلام وطلب المتعة بوصفها غاية انتشائية وهدفاً شهوانياً، يسعى فيها الذكر لحصد المزيد منها، يؤازره في ذلك ترحيب مجتمعي وثقافة ذكورية استبدادية عملت على طمس الهوية الأنثوية، لأن "نظام الحياة هنا. المرأة للرجل، والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل العمر"[٩٦] فكأن المرأة وجدت من أجل الرجل وليس شريكة له، تماماً مثلما يعتقد الغرب بأن "الشرق وجد من أجل الغرب"[٩٧]. وفي المجتمع الشرقي (القرية) تتسيد القاعدة الاجتماعية: "إذا كان أبو المرأة وأخوانها راضين فلا حيلة لأحد"[٩٨].

ويبدو أن الاستقرار التاريخي الذي انمازت به هذه البنية كان استقراراً ظاهرياً يخفي في اعماقه خلافاً مزمناً لم تتوافر له أسباب الظهور إلا من خلال البنية الجنسية الخاصة.

ب-البنية الجنسية الخاصة:

تشكلت هذه البنية بالاتكاء على الصراع المرعب بين شخصيتين متنافرتين، الأولى: ود الريس، والأخرى: حسنة بنت محمود.

لقد امتلك سعيد قدرة هائلة في التأثير بمحيطه طوال سني حياته، وقد ظهر ذلك جلياً في طفولته، وفي سفره إلى الغرب، وفي إيابه إلى الشرق، حين تزوج بإحدى جميلات القرية (حسنة بنت محمود)، واستولدها ولدين، وقبل رحيله الأبدي سلّم زوجته وصية مكتوبة للراوي مختومة بالشمع الأحمر، تضمنت الاهتمام بشؤون عائلته، ولاسيما ولديه، وغرفة خاصة بكتبه ومقتنياته الخاصة. ومنح زوجتهُ الحرية بالتصرف بالشؤون الأخرى، لأنه يثق بحكمتها وحسن تصرفها[٩٩].

ولعلّ في الوصية ما يشير بوضوح إلى قناعة سعيد بوعي زوجته وانتمائها إلى هويته، هوية الواعي الثائر والرافض لكل مظاهر الاستبداد والإذلال.

إن هذا الإنتماء الجديد لم يكن لولا التغيير الذي أصاب حسنة بعد زواجها من سعيد، وفي ذلك يتحدث محجوب – صديق الراوي– بأن "بنت محمود قد تغيرت بعد زواجها من مصطفى سعيد. كل النسوان يتغيرن بعد الزواج لكنها هي خصوصاً تغيرت تغيراً لا يوصف. كأنها شخص آخر. حتى نحن أندادها الذين كنا نلعب معها في الحي، ننظر إليها اليوم فنراها شيئاً جديداً. هل تعرف؟ كنساء المدن"[١٠٠].

وبهذا أضحت أرملة سعيد ذاتاً حضرية تعيش في قرية، وقد تقاطر عليها الرجال لخطبتها فترفض، حتى كان آخرهم ود الريس الذي وسّط الراوي وحين تعجّب الوسيط من طلب ود الريس الزواج وهو يكبر المرأة

بأربعين عاماً أجابه جدّه: "ود الريس لايزال شاباً، وهو صاحب مال. وعلى أي حال المرأة يلزم لها الستر. ثلاثة أعوام مرت على وفاة زوجها. ألا تريد الزواج أبداً؟"[١٠١].

وفعل الراوي وزار حسنة في بيتها لخطبتها، وبعد أن داخل نفسه كبير اعجابها بقوامها وجمالها[١٠٢]، أخبرها بأن "ود الريس يريد زواجك، وأبوك وأهلك لا يمانعون. كلفني أن أتوسط له عندك"[١٠٣]. فأجابته حسنة بعد صمت طويل: "إذا أجبروني على الزواج، فانني سأقتله وأقتل نفسي"[١٠٤].

وهكذا كان الرفض جواباً قطعياً تضمن مواجهة دامية، إذ أعلنت أرملة سعيد تمرداً صريحاً ضد قوى التسلط والقهر التي تستغل جور الثقافة التعسفية السائدة في المجتمع الشرقي؛ لتمرير هيمنتها على الجنس الآخر ومصادرة رأيه وسحق حريته، ولذلك فهي تأبى التنازل عن هوية انتمائها الحضاري الجديد الذي يناضل من أجل أن لا يبتلع نصف المجتمع نصفه الآخر، فيغدو المجتمع حينها هزيلاً يغوي المستعمر ويجذب الطامع.

وقابل الود ريس رفض حسنة بالإصرار والتعنت: "ستقبلني وأنفها صاغر [...] تحمد الله انها وجدت زوجاً مثلي"[١٠٥]. وواضح أن هذا الجواب يحمل عبارات متعالية تبرّز فوقية (الأنا) ودونية (الآخر)، وهو بالنتيجة تمظهر لتجليات السلطة التي هي "إكراه في جوهرها"[١٠٦]، والسلطة أيضاً – بحسب فوكو – هي ممارسة وصراع بين قوتين[١٠٧].

ونتيجة لضغط الأهل والمجتمع تزوج الود ريس من حسنة، ولكنها لم تدعه يقربها على مدى أسبوعين على الرغم من أن (ود الريس) قد شارف على الجنون من أجل أن يتمكن منها[١٠٨].

وبعد ذلك وقع المحذور ونفذت أرملة سعيد تهديدها: "كان البرش الأحمر يعوم في الدم [...] بنت محمود معضوضة ومخدشة في كل شبر من جسمها. بطنها أوراكها. رقبتها. عض حلمة نهدها حتى قطعها. الدم يسيل من شفتها السفلة [...] ود الريس مطعون أكثر من عشر طعنات. طعنة في بطنه وفي صدره وفي محسنه [...] كان الدم حاراً يبقبق من قلب بنت محمود وبين فخذي ود الريس"[١٠٩].

لقد أجادت الرواية رسم صورة هذا النزال المرعب، ولاسيما حينما قُطعت حلمة النهد بوصفها علامة للأنوثة والعطاء، وكذلك حينما بُتِر قضيب الود ريس كونه رمزاً للذكورة والاستعباد. إن هذه المقتلة تشكل علامة استفهام كبرى ينبغي على المجتمع تأملها وتدبرها لموازنة المعادلة الظالمة الهرمة، وتصحيح مساره الانحداري القديم القائم على إهدار حق الآخر والغاء وجوده.

إن هذا المشهد الدموي والعنف المتبادل بين حسنة رمز التحرر، والود ريس رمز التسلط

يعكس عمق المشكلة التاريخية المزمنة التي تقف حائلاً أمام النهوض والإبداع والاستقرار الحقيقي، فبقاء المجتمع مأموماً للخطاب الأبوي المسكون بهاجس الغلبة والتمركز حول الذات ونفي الآخر سيؤدي حتماً إلى الضياع والعنف والدم ومن ثم استقدام الغزاة ووقوع المجتمع بأسره رهينة استبداد أشمل وقمع أعم.

ثانياً: البنية الزمانية:

اكتنز النص الروائي المدروس بمفارقات زمنية، وحيل سردية توقيتية متعددة وفاعلة استطاعت أن تقبض على الفروق الحضارية والثقافية بين الشرق والغرب.

والبداية من العنوان (موسم الهجرة إلى الشمال) الذي اشتمل على أقصى درجات الاقتصاد اللغوي، ليشكل بنية زمانية متماسكة تشير إلى أن الزمن يتطلب الهجرة إلى الغرب طلباً للمعرفة والتحضر ومضامين أُخر ينهض بمعالجتها المتن الروائي.

وسعيد من مواليد الخرطوم ١٨٩٨م(١١٠). وهي السنة نفسها التي جرت فيها معركة فاصلة بين الجيش البريطاني بقيادة (كيتشنر)، وجيش المهدي السوداني قرب (أم درمان) عاصمة الدولة المهدية إذ "استخدم كيتشنر في المعركة سلاحاً جديداً هو الرشاشات. وتقدم المهديون في صفوف متماسكة مسلحين بالبنادق القديمة والسهام والخناجر ودون أن يهابوا الموت. فحصدهم كيتشنر بنيران رشاشاته. وهلك في هذه المعركة أكثر من **20** ألفاً من المهديين فأصيب جيش المهدي باندحار تام"(١١١).

ويبدو جلياً أن اختيار زمن تولد سعيد المذكور كان قصدياً، فالعشرون ألف سوداني الذين نحرهم المستعمر الغربي لم يكن لهم من خطيئة سوى دفاعهم المر عن بلادهم. إن الشرقيين السود رفضوا اغتصاب الغربيين البيض لأراضيهم وقاتلوهم من أجل أن لا تغتصب أعراضهم وكرامتهم. وبذلك أصبح عام ولادة سعيد عام الدم والهزيمة؛ مما شكَّل هذا التأريخ حفراً غائراً في ذاكرته الوجدانية وملمحاً أساساً في مخياله الثقافي.

وإذا ما ضممنا إلى ما تقدم طفولة سعيد المختلفة التي افتقرت إلى الكثير من الحنان(*) أمكن تفسير هدف مغامراته الجنسية الممزوجة بالثأر والحقد.

ولعل سعيداً أدرك منذ صباه أن سهام قومه وخناجرهم ما كانت لتكافئ رشاشات (كيتشنر)؛ مما عمّق لديه الوعي بضرورة امتلاك ناصية العلم ومفاتيح المعرفة للنهوض العارف بوجه الأعداء الغربيين.

ويقدم الراوي جدّه (الحاج أحمد) بوصفه شخصية طيبة وبسيطة تبحث على الاطمئنان: "وأذهب إلى جدي، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً، قبل خمسين عاماً، لا بل ثمانين عاماً، فيقوى احساسي بالأمن"(١١٣). ولذلك يصفه الرواي بـ"ذلك

الكيان العتيق"[١١٤]. ثم يذكر: "وحين أعانقه استنشق رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع"[١١٥].

وبحسب النصوص المتقدمة فإن شخصية الجد تبعث على الإطمئنان بقدر ما تبعث على الثبات والجمود؛ فإحساسه بالزمن احساس تقليدي، مما يحول دون أي تغيّر في الوعي، إذ لا يمتلك استجابة إيجابية للمعطيات الجديدة؛ لذلك فإن الزمن الممتد من الطفل الرضيع إلى الضريح الكبير في (المقبرة) هو زمن طويل من الناحية التاريخية، ولكنه لا يساوي شيئاً من الناحية الحضارية، لأنه زمن ساكن – كما هو حال المقبرة – يتكأ على عملية استنساخ ثقافة الأصل، وهي ثقافة شرقية مستكينة تقوم على الاجترار والتنميط، بدلاً من الابداع والانتاج مثلما هو حال الثقافة الغربية.

وبصورة أجلى يصور سعيد – محاوراً الراوي – الجد كـ"الشجرة تنمو ببساطة، وجدك عاش وسيموت ببساطة. ذلك هو السر"[١١٦] السر في أن تبقى مسيرة البلد في دائرة مغلقة، وصفحات التاريخ تكرر نفسها، فيفرض الغرب هيمنته وجبروته.

ويرى سعيد أيضاً أن الـ"حاج أحمد جزء من التاريخ"[١١٧] التاريخ المستقيل الذي لا يضيف شيئاً سوى التراكم الزمني المتخشب.

وبجملة واحدة يُشبّه الراوي جدّه: "كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك"[١١٨] فالثبات يعني الجمود والتخلف. والتحرك يعني التحول والتطور، والمتغير الزمني مرهون بالمتغير الحضاري.

ومن نتائج ثقافة الجد الماضوية الثابتة – على الرغم من طيبته اللامحدودة – موقفه السلبي بإزاء قتل حسنة للود الريس: "لعنة الله على النسوان. النسوان اخوات الشيطان. ود الريس، ود الريس. وانفجر جدي يبكي"[١١٩]. إن حسنة تمثل رمز الرفض لهيمنة السلطة/ الود ريس التي عدّت الأعراف الاجتماعية الرجعية أصلاً ومرجعاً لهم، ومعايير يقاس الحاضر بمقتضاها ولا يُسمح بخرقها. بمعنى آخر أن الجد ينتمي إلى ثقافة الثبات التي تعاير الحاضر على الماضي على الرغم من اختلاف الحاجات والتحديات.

في حين أن حسنة تنتمي إلى الثقافة الحديثة التي تنطلق من تحديات الحاضر، وأن الماضي بالنسبة لها مختلف وليس واحداً أو أصلاً لا يتغير. وبالنتيجة فإن ثقافة الثبات تُمهّد للاستعمار والتحكم وتقصي الاستقلال والتحرر.

ويقدم الراوي تجربته في التغيير، بسرده أحداثاً عبرَ تقنية الاسترجاع الزمني المفتوح امتد إلى ما قبل سبع سنين (مدة سفره إلى لندن) إلى زمنه الحاضر، زمن الحكي عبرّ تقنية التواتر التي شكلت المساحة الأكبر

والأخطر في الرواية، وهاتان الصورتان من الزمن تشكلان موقف الراوي وتعملان على كشف تجربة قلقه في وعيه[١٢٠].

لم يتملك الراوي في بداياته وعياً كافياً للتغيير، فقد كان يعيش زمن الثبات على الرغم من سفره الطويل إلى لندن واحتكاكه بحضارة الغرب: "ولكنني عشت معهم على السطح، لا أحبهم ولا أكرههم. كنت اطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة، أراها بعين خيالي أينما التفت"[١٢١].

ولقد لمح سعيد هذا الثبات حينما التقى الراوي في أول وهلة: "لمحت فيك صورة عن جدك"[١٢٢]. ولكن تأثير سعيد الثقافي في حياته وبعد مماته بدا فاعلاً ومؤثراً في الراوي تدريجياً من خلال الحوار، وسرد أحداث مغامرات سعيد الجنسية، وانجازاته الفكرية في الغرب، إلى جانب تكليف الراوي ليكون وصياً على عائلته، وتسليمه مفاتيح الغرفة، وما يتضمن ذلك التسليم من واقعية ورمزية في آن واحد، فهي محاولة عارفة لمنح الراوي أدوات التغيير بحيث يكون في وسعه أن يقيم مع كتب سعيد علاقة نقدية عقلانية تنفتح على الزمن الثقافي وتغادر الزمن الطبيعي.

ولعل ما يعزز هذا المعنى ما وجده الراوي على إحدى القصصات في غرفة سعيد مكتوباً عليها: "نعلم الناس لنفتح أذهانهم ونطلق طاقاتهم المحبوسة. ولكننا لا نستطيع أن نتنبأ بالنتيجة – الحرية. نحرر العقول من الخرافات نعطي الشعب مفاتيح المستقبل ليتصرف بها كما يشاء"[١٢٣]. فإذن هي عملية شحذ العقول وتثويرها لخلق وعي جديد ينهض على الإيمان بأهمية الحاضر والمستقبل وعدم التطرف في التعلق الماضي.

وتبلور هذا التأثير واشتد بالراوي بعد موت سعيد: "وفي الخرطوم أيضاً، عرض لي طيف مصطفى سعيد [...] كأنه جن اطلق من سجنه، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر"[١٢٤]. ثم يلحّ طيف سعيد عليه ويشتد ليصل به حد الهوس: "لكن أرجو أن لا يتبادر إلى أذهانكم، يا سادتي، ان مصطفى سعيد أصبح هوساً يلازمني في حلي وترحالي"[١٢٥]. إن عملية الانكار هي لون من ألوان الدفاع عن النفس وهي شرط لتمثل المكبوت في الوعي[١٢٦].

وكان لابد لشخصية قابلة للتغيير كالراوي أن تستجيب مع مرور الزمن للضغط المعرفي الهائل المسلط من شخصية عليمة مثل شخصية سعيد. وتجلت نتائج التحول عبر موقفه حيال حادثة أرملة سعيد، فقد خاطب الراوي صديقه (محجوباً) الذي اتهم حسنه بالجنون بعد حادثة القتل: "حسنة لم تكن مجنونة. كانت أعقل امرأة في البلد. أنتم المجانين"[١٢٧]. لأن الجنون أن يعيش المرء زمن الصمت حينما يكون التسلط والتخلف ناطقاً وحاكماً في المجتمع.

وتأكيداً لهذا التغيير كانت نهاية الراوي أن يكون في عرض النهر تماماً كما صنع من قبل في مشهد رمزي يشير إلى الرغبة العميقة والحنين إلى الحضارة الى الغرب.

واشتملت الرواية على شخصيات غربية عابرة أدت أدواراً مؤقتة تبنت ثقافة أنوية تقوم على حصر المعرفة والتقدم بالغرب، وارساء الثبات والحيلولة دون تطور الشرق واستقلاله، ومن ذلك ما جاء في محاورة بين الراوي وصديقه – رجل انكليزي – الذي ينتقد تطلعات الشرق ويحسبها خرافات تضاف إلى خرافات الشرق القديمة: "ها أنتم الآن تؤمنون بخرافات من نوع جديد خرافة التصنيع، خرافة التأميم [و] والوحدة العربية. خرافة الوحدة الافريقية. انكم كالأطفال تؤمنون أن في جوف الأرض كنزاً ستحصلون عليه بمعجزة، وستحلون جميع مشاكلكم، وتقيمون فردوساً. أوهام. أحلام يقظة"(١٢٨).

إن انتقال الشرق من زمن الاستهلاك والتفرق إلى زمن الصناعة والاتحاد أمرٌ يؤرق الغرب ويستفز آلياته على جميع المستويات، ومنها التثقيف والتنظير السلبي، فاتكاء الدول الشرقية على إمكانياتها الذاتية يعني انكفاء الهيمنة المركزية الغربية على نفسها وعودتها إلى حدودها الطبيعية، وهذا بدوره يهدد الوجود السلطوي للغرب، ويحجم من ذائقته التوسعية.

وفي هذا المضمار أيضاً ما صدر عن أحد أصدقاء الراوي (ريتشارد): "كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا، كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم اسطورة الاستعمار المستتر. يبدو أن وجودنا. بشكل واضح أو مستتر، ضروري لكم كالماء والهواء"(١٢٩). ولاريب في أن ثقافية تهوين إرادة (الآخر) وتقزيم قدراته متفشية في هذا النص إلى حد يجعل من أهمية وجود الغرب بالنسبة للشرق مساوية، أو أكثر، من وجود الأم بالنسبة إلى طفلها الرضيع. ولو قُيض لهذا الوليد أن يكبر فان حنينه إلى أمه سيكبر معه، ولذلك فإن وجود الاستعمار – بحسب النص – المباشر في الشرق بالاحتلال، أو وجوده الكامن بوصفه المصدر لكل حاجات (الآخر) المادية والثقافية قضية مصيرية بالنسبة للشرق. وكل هذا المخيال الزائف والتصور التلفيقي يُظهر الحاجة الملحة والاقتضاء والحتمي إلى التحول من الزمن التقليدي الذي يعيشه الشرق إلى زمن الحداثة التي تتضمن مراعاة الأبعاد الخاصة لثقافتنا، فينبغي أن تكون الحداثة حداثتنا – إي لا تفارق هويتنا – وليس حداثتهم التي ترمي إلى تكبيل الأيدي من جديد بأصفاد غير مرئية.

ثالثاً: البنية المكانية:

امتلكت الرواية رؤية مكانية ذات اتساع جغرافي وثراء دلالي، إذ مركزت أحداثها في

مكانين متباعدين: القرية الشرقية، والمدينة (لندن) الغربية.

وحينما سافر سعيد إلى لندن استطاع ان يرتب له غرفة نوم بمعالم شرقية، وبعناية فائقة، واهتم النص الروائي بهذا المكان اهمية استثنائية فقد اشتمل على مساحات نصية متعددة، وبنى حوارية مختلفة، ونتائج خطيرة حول احداث جنسية ذات دلالات ثقافية: "غرفة نومي مقبرة تطل على حديقة، ستائرها وردية منتقاة بعناية، وسجاد سندسي دافئ والسرير رحب مخداته من ريش النعام. وأضواء كهربائية صغيرة، حمراء وزرقاء، وبنفسجية، موضوعة في زوايا معينة. وعلى الجدران مرايا كبيرة، حتى اذا ضاجعت امرأة، بدا كأنني أضاجع حريماً كاملاً في آن واحد"(١٣٠). ولم تقتصر الغرفة على اغراءات بصرية بل تراسلت مع حواس شمية: "تعبق في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند، وفي الحمام عطور شرقية نفاذة، وعقاقير كيمياوية، ودهون، ومساحيق"(١٣١).

وتغيا سعيد من تأثيث غرفة نومه على وفق الطرز الشرقية بمظاهرها الطبيعية والصحراوية، اغراء صديقاته الغربيات ونقلهن إلى أجواء شرقية حالمة تساعده في الايقاع بهنَّ وتحقيق (غزواته) المتكررة. وظلت هذه الغرفة الشرقية في الغرب على الدوام تقضم انسانية فريستها وتستلب ذاتها، فتحليها جثة هامدة بعد حين.

وبعدما آب سعيد إلى القرية بنى غرفة في بيته على غرار تلك الغرفة في لندن، إذ انشأها من "الطوب الأحمر، مستطيلة الشكل، ذات نوافذ خضراء، سقفها ليس مسطحاً كبقية الغرف، ولكنه مثلث كظهر الثور"(١٣٢). وفي هذه الغرفة كُتِب تأريخ رحلة سعيد الجنسية والثقافية كاملة، فيها صوره في الجامعة وصور جميع النساء الغربيات اللواتي وقعن في شباكه مع امضائهن وذكرياتهن، وفيها كم هائل من أمهات الكتب الغربية، في علم النفس والاقتصاد والتاريخ والأدب والاجتماع والفلسفة والحيوان والجيولوجيا...، وفيه القرآن الكريم بالإنكليزية، والانجيل بالإنكليزية، افلاطون، اينشتاين، أعمال برنادشوا، وفيها أيضاً: اقتصاد الاستعمار، مصطفى سعيد، والاستعمار والاحتكار، مصطفى سعيد، والصليب والبارود مصطفى سعيد، اغتصاب افريقيا، مصطفى سعيد(١٣٣).

إن كثرة هذه الكتب وتنوع اختصاصاتها واختلاف عنواناتها تدل على موسوعية فكر سعيد، فضلاً عن امتلاكه عدّة بحثية هائلة تجعل منه ذاتاً عارفة وقادرة على الولوج في عمق الفكر الغربي ودراسته والإفادة منه وتوظيف ذلك في خدمة بلده. يقول عنه استاذه بروفسور (ماكسول) في قاعة المحكمة الكبرى في لندن: "مصطفى سعيد يا

حضرات المحلفين انسان نبيل استوعب عقله حضارة الغرب"[١٣٤].

ويبدو جلياً أن مؤلفات سعيد تكشف عن اهتماماته الوطنية والانسانية في أن تمحورت حول ظاهرة خطيرة هي الاستعمار مما يؤكد ايمانه الراسخ بضرورة مقاومته فكرياً ونشر الوعي التحرري وفضح أساليبه القمعية، إلى جانب أن مناهضة سعيد الجنسية للغرب تتضمن رمزية عالية في أنها ردة فعل بإزاء مستعمِر غشوم دفع (بالآخر) إلى أن يكون ثائراً حاقداً عليه.

وظهرت القرية مكاناً مألوفاً يبعث على الاطمئنان والدعة مثلما وصفها الراوي بعد عودته من الغرب: "نظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لاتزال بخير، أنظر إلى جذعها القوي المعتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة. أحس أني لست ريشة في مهب الريح"[١٣٥].

فالراوي اطمأن وتبدد خوفه، بعد أن كان الغرب يشكل مكاناً غير مألوف (ريشة في مهب ريح) وهذه مشاعر أغلب المغتربين فـ"الارتحال عن الوطن يولّد اغتراباً مكانياً لا تنفتح معه إلا أسوار الوحشة"[١٣٦].

وفي هذه القرية أيضاً دار جد الراوي، فهي "دار فوضى قائمة دون نظام، اكتسبت هيئتها هذه على مدى اعوام طويلة، غرف كثيرة مختلفة الاحجام، بنيت بعضها لصق بعض في أوقات مختلفة [...] غرف يؤدي بعضها إلى بعض، بعضها لها أبواب وطيئة لابد أن تنحني كي تدخلها وبعضها ليست لها أبواب اطلاقاً، بعضها لها نوافذ كثيرة وبعضها ليست لها نوافذ. حيطانها ملساء مطلية بمادة هي خليط من الرمل الخشن والطين الأسود وزبالة البهائم"[١٣٧].

إن هذا المكان بتفاصيله المذكورة يشير إلى بساطة العيش وبدائيته، بقدر ما يشير إلى طبيعة البنية العقلية غير المنتظمة في الشرق، التي تعتمد النظرة الجزئية، وتفتقد إلى الرؤية الكلية للأشياء (الفراغ المطلوب) ويشكل نهر النيل علامة مكانية فارقة في الرواية لما تمتع به من رمزية كبيرة في تمثل بعض مفاصل الأحداث المهمة، فهذا النهر هو النهر الوحيد في العالم الذي يجري من الجنوب إلى الشمال، أو من الشرق حاملاً معه الخير والسلام إلى الغرب: "والنهر، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية، يجري نحو الشمال"[١٣٨]. ولكن الغرب أرسل عبر النيل الآلات الحرب والدمار فـ"البواخر مخرت عرض النيل أول مرّة تحمل المدافع لا الخبز"[١٣٩].

وهكذا سجل هذا المكان المتحرك/ النيل جزءاً من تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب ليصبح شاهداً أزلياً على الحيف الذي صدر من مصبه حيال منبعه.

الخاتمة

آن للدراسة بعد أن أشرفت على نهاية رحلتها البحثية أن توجز أهم ما تمخض عنها من نتائج ، وهي :

١. الاستغراب مشروع للنهوض الثقافي ، واستجابة معرفية للتغيير ، ومحاولة لوضع الشرق الإسلامي على سكة التطور لمواكبة الغرب في التطور والازدهار .

٢. يتطلب الاستغراب إمكانات مؤسساتية فكرية واسعة ودعم شامل على مستوى الدول ، وجامعاتها تأخذ على عاتقها المراجعة والتخصيب والتطوير والانتقال من التنظير إلى التطبيق .

٣. أثبت الاستغراب أن التحرر لا يحصل من دون أن تتحول(الأنا) من موضوع للدرس إلى ذات دارسة عارفة

٤. رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) منجز أدبي إبداعي عميق تضمن بثراء ملحوظ إشكالات العلاقة التشابكية بين الأنا الشرقية والآخر الغربي واشتمل على جوانب متعددة من موضوعة الاستغراب .

٥. مثلت البنية الجنسية في الرواية انعكاساً جلياً لمنظومة العلاقة التصارعية الثأرية التي قامت على الفعل ورد الفعل بين الأنا الشرقي والآخر الغربي .

٦. تشكلت البنية الزمانية للرواية من المعنى الموضوعي للزمن ، أي بوصفه فعلاً تزمينياً قادراً على إحداث تغيير في الواقع ، وكذلك الزمن بمعناه الاسمي الدال على السكون والتخشب .

٧. انمازت البنية المكانية في الرواية باكتناز دلالي،إذ استطاعت تحريك الأحداث وإنماءها ومفاعلتها مع شخصيات مختلفة وأسهمت بشكل فاعل في تجسيد مفاصل الأحداث ومتابعة تطورها على المستويين الواقعي والرمزي .

٨. أفرزت الرواية نوعين من الآخر : الآخر الخارجي الغربي ، والآخر الداخلي الشرقي ، وتبعاً للضد من ذلك تشكل نوعان من الأنا : الأنا الرافضة المتمردة ، والأنا الخاضعة المستكينة .

٩. أثبتت الرواية أن الغرب ليس واحداً في شتى جوانبه ، بل هو متنوع ومتباين ولا يمكن اختزاله في نظرة واحدة ومثال ذلك مسز روبنسن وزوجها .

الهوامش:

١

(٢) لسان العرب، ابن منظور(ت٧١١ هـ) اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، د.ت، مادة: غ ر ب: ٣٤/١٠.

(٣) ينظر: المنجد في اللغة والاعلام، لويس معلوف، دار المشرق، بيروت، ط٢، د.ت: مادة غ ر ب: ٥٤٧.

(٤) ينظر: دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٢م: ٣٨.

(٥) لمعرفة التفاصيل ينظر: الإسلام في القرون الوسطى، دومينيك سورذيل، تر: علي المقلد، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م: ٣٥. ونظرة في نشأة وتطور الاستشراق، د. بهجة كامل عبد اللطيف، مجلة كلية الآداب، ع٩، جامعة بغداد، ٢٠٠٩م: ٤/٢.

(٦) ينظر: الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي (إجمالاً) – دراسة وتحقيق – محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.

(٧) ينظر: دليل الناقد الأدبي: ٣٨.

(٨) ينظر: المثقفون العرب والغرب – من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب – أحمد الشيخ، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م: ٦٦.

(٩)

(*) وفي ذلك أنجز مؤلفاً ضخماً موسوماً بـ(مقدمة في علم الاستغراب)، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م.

(١٠) م. ن: ٢٣.

(١١) نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٩٨٧م: ٢٩٣.

(١٢) ينظر: مسألة الهوية – العروبة والإسلام... والغرب– د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٧، ٢٠٠٦م: ٩٠.

(١٣) ينظر: الشرق الخيالي ورؤية الآخر، تيري هنتش، تر: د. ميّ عبد الكريم، دار المدى، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٦م: ١١٥.

(١٤) م. ن: ٩ (المقدمة).

(١٥) ينظر: المثقفون العرب والغرب – من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب– أحمد الشيخ، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م: ١١١.

(١٦) ينظر: الاستغراب القسري في جدل التثاقف بين المركز والهوامش، نجلاء مكاوي، مجلة الاستغراب، ع١، س١، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ١٤٣٦هـ– ٢٠٠٥م: ٢٦٣.

(١٧) الاستشراق – المعرفة. السلطة. الإنشاء: ١٢٨.

(١٨) ينظر: الشرق الخيالي ورؤية الآخر: ٨٩.

(١٩) ينظر: المثقفون العرب والغرب – من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: ٦٦.

(٢٠) الشرق الخيالي ورؤية الآخر: ٢٢٥. والباحث يتفق مع هذا المعنى ويستثني منه عصر الفتوحات الإسلامية.

(*) التراث والتجديد – موقفنا من التراث القديم، د. حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١.

(٢١) م. ن: ١١

(٢٢) م. ن: ١١.

(٢٣)

(٢٤) ينظر: مقدمة في علم الاستغراب: ١٩– ٢٠.

([٢٥]) ينظر: م. ن: ٢٠.
([٢٦]) ينظر: م. ن: ٢٠.
([٢٧]) مقدمة في علم الاستغراب: ٢١.
([٢٨]) م. ن: ٢٨.
([٢٩]) م. ن: ٢٩- ٣٠.
([٣٠]) م. ن: ٣٠.
([٣١]) ينظر: م. ن: ٢٥.
([٣٢]) م. ن: ٢٤.
([٣٣]) ينظر: م. ن: ٣٩.
([٣٤]) دليل الناقد الأدبي: ٤٠.
([٣٥]) ينظر: م. ن: ٤٠.
([٣٦]) ينظر: أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند ادوارد سعيد – حسن حنفي– عبد الله العردي، د. نديم الجابري، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م: ٢١٢، ٢١٦.
([٣٧]) ينظر: الهوية الثقافية والنقد الأدبي، جابر عصفور، دار الشروق، القاهرة، مصر، طبعة خاصة، لمكتبة الأسرة، ٢٠١٠م: ٥٣، ٥٤، ٦٣.
([٣٨]) ينظر: المثقفون العرب والغرب – من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: ١٥٣.
([٣٩]) نقد التراث عند حسن حنفي، جليد قادة، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، مركز الكتاب للنشر، ع٥، س١٥، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٦م: ١٥.
([*]) من الآن فصاعداً سنختصر اسم البطل بسعيد.
([٤٠]) ينظر: موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م: ٢٦-٢٩.
([٤١]) م. ن: ٢٨- ٢٩.
([٤٢]) موسم الهجرة إلى الشمال: ٢٩.
([٤٣]) م. ن: ٣٠.
([٤٤]) م. ن: ٢٩.
([٤٥]) م. ن: ٣٠. كانت (مسز روبنسن) محرومة من الأولاد، وأقامت علاقة أمومة طيبة مع سعيد في القاهرة وفي لندن أيضاً. ينظر: م. ن: ٢٩، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ على سبيل المثال.
([٤٦]) م. ن: ٢٩.
([٤٧]) ينظر: م. ن: ٣٤.
([٤٨]) م. ن: ٣٤.
([٤٩]) م. ن: ٣٤.
([٥٠]) ينظر: شرق وغرب رجولة وأنوثة – دراسة في أزمة الجنس في الرواية العربية، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٢م: ١٠.
([٥١]) موسم الهجرة إلى الشمال: ٣٥.
([٥٢]) م. ن: ٣٥.
([٥٣]) ينظر: م. ن: ٣٨، ١٤٠.
([٥٤]) م. ن: ٣٨.
([٥٥]) ينظر: م. ن: ١٤١.
([٥٦]) م. ن: ٤٠.
([٥٧]) م. ن: ٤٠.
([٥٨]) موسم الهجرة إلى الشمال: ٤١.
([٥٩]) م. ن: ٤٧، ٤٨.
([٦٠]) الاستشراق – المعرفة. السلطة. الانشاء، إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط٧، ٢٠٠٥م: ٦٨.
([٦١]) يقول سعيد مخاطباً الغربيين: "جئتكم غازياً في عقر داركم" و"أنا المستعمِر". موسم الهجرة إلى الشمال: ٦٣، ٩٧، ٩٨.
([٦٢]) ينظر: م. ن: ٣٣
([٦٣]) موسم الهجرة إلى الشمال: ٣٤.
([٦٤]) ينظر: م. ن: ٣٤.
([٦٥]) م. ن: ٣٧.
([٦٦]) م. ن: ٣٧.
([٦٧]) م. ن: ١٥٨.
([٦٨]) ينظر: م. ن: ١٦٣، ١٦٤.
([٦٩]) م. ن: ١٦٢.

(٧٠) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة – تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة – د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م: ١٧١.

(٧١) موسم الهجرة إلى الشمال: ١٥٨.

(٧٢) م. ن: ١٥٩.

(٧٣) م. ن: ١٥٩.

(٧٤) م. ن: ١٥٩.

(٧٥) م. ن: ١٥٩.

(٧٦) إدوارد سعيد رواية للأجيال، محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٥م: ٧٤.

(٧٧) شرق وغرب رجولة وأنوثة: ١٦٤– ١٦٥.

(٧٨) ينظر: م. ن: ١٦٥.

(٧٩) موسم الهجرة إلى الشمال: ١٦٥.

(٨٠) م. ن: ١٦٦.

(٨١) م. ن: ١٦٦– ١٦٧.

(*) وثقافياً من خلال ثقافته ومؤلفاته كما سنرى.

(٨٢) م. ن: ١٢٢.

(٨٣) م. ن: ١٦٥.

(٨٤) ينظر: شرق وغرب رجولة وأنوثة: ١٦٧.

(٨٥) موسم الهجرة إلى الشمال: ٨٢.

(٨٦) ينظر: م. ن: ٨٧، ٨٩.

(٨٧) م. ن: ٨٢– ٨٣.

(٨٨) ينظر: م. ن: ٨٣.

(٨٩) ينظر: م. ن: ٨٣.

(٩٠) ينظر: م. ن: ٧٨.

(٩١) ينظر: م. ن: ٨٣– ٨٤.

(٩٢) ينظر: م. ن: ٨٠.

(٩٣) موسم الهجرة إلى الشمال: ٧٩– ٨٠.

(٩٤) م. ن: ٨١.

(٩٥) شرق وغرب رجولة وأنوثة: ١٧٣.

(٩٦) موسم الهجرة إلى الشمال: ١٠٢.

(٩٧) الاستشراق – المعرفة، السلطة. الانشاء: ٢١٦.

(٩٨) موسم الهجرة إلى الشمال: ١٠٢.

(٩٩) ينظر: م . ن: ٦، ١٠، ٩٦.

(١٠٠) م. ن: ١٠٤

(١٠١) م. ن: ٨٩.

(١٠٢) ينظر: موسم الهجرة إلى الشمال: ٩٨.

(١٠٣) م. ن: ٩٩.

(١٠٤) م. ن: ٩٩.

(١٠٥) م. ن: ١٠٠.

(١٠٦) الأنتروبولوجيا السياسية، جورج بالانديه، تر: علي المصري، دار مجد، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م: ٥٨.

(١٠٧) ينظر: المعرفة والسلطة (مدخل لقراءة فوكو)، جيل دلوز، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٨: ٧٨– ٧٩.

(١٠٨) ينظر: موسم الهجرة إلى الشمال: ١٠٠– ١٠١.

(١٠٩) م. ن: ١٢٨. وحسنة قطعت ذكر الود ريس ينظر: م. ن: ١٤٣.

(١١٠) موسم الهجرة إلى الشمال: ٢٢.

(١١١) تأريخ الأقطار العربية الحديث، لوتسكي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط٩، ٢٠٠٧م: ٢٨٧.

(*) عاش سعيد وحيداً لأمه التي كانت غريبة في تعامله معه، لم تقييد حريته أو تقلق من غيابه أو تبادله الحنان مثل بقية الأمهات، وبذلك نشأ مختلفاً، لا يبكي إذا ضُرب، ولا يفرح إذا أثنى عليه المدرس في الفصل، ولا يتألم لما يتألم له الباقون، فقط كان شيء مكور من المطاط تلقيه في الماء فلا يبتل، ترميه على الأرض فيقفز. ينظر: موسم الهجرة إلى الشمال: ٢٣– ٢٤.

(١١٣) م. ن: ٩.

(١١٤) موسم الهجرة إلى الشمال: ٧٧.
(١١٥) م. ن: ٧٧.
(١١٦) م. ن: ٤٥.
(١١٧) م. ن: ٥٤.
(١١٨) م. ن: ٥٢.
(١١٩) م. ن: ١٢٥.
(١٢٠) ينظر: جمالية العلامة الروائية، د. جاسم حميد جودة، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠١٤م- ١٤٣٥هـ: ٧٥.
(١٢١) موسم الهجرة إلى الشمال: ٥٢- ٥٣.
(١٢٢) م. ن: ٧١.
(١٢٣) م. ن: ١٥٣.
(١٢٤) م. ن : ٥٨.
(١٢٥) م. ن: ٦٥.
(١٢٦) ينظر: صراع المقهور مع السلطة – دراسة في التحليل النفسي لرواية الطيّب صالح موسم الهجرة إلى الشمال، رجاء نعمة، بيروت، ١٩٨٦م: ١٠٤.
(١٢٧) موسم الهجرة إلى الشمال: ١٣٣.
(١٢٨) م. ن: ٦٢- ٦٣.
(١٢٩) م. ن: ٩٦- ٩٧.
(١٣٠) موسم الهجرة إلى الشمال: ٣٤.
(١٣١) م. ن: ٣٥.
(١٣٢) م. ن: ٦٠.
(١٣٣) ينظر: م. ن: ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.
(١٣٤) م. ن: ٣٦.
(١٣٥) موسم الهجرة إلى الشمال: ٦.
(١٣٦) محمود درويش الشاعر – دراسة فنية(رسالة ماجستير) ساري الديك، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٨م:٦.
(١٣٧) موسم الهجرة إلى الشمال: ٧٥.
(١٣٨) م. ن: ٧٣.
(١٣٩) م. ن: ٩٨. والنهر هو الذي حمل سعيداً إلى القرية في محاولة للإفلات من حنينه إلى الغرب "ركبت الباخرة، وأنا لا أعلم وجهتي. ولما رست في هذا البلد، اعجبني هيئتها. وهجس هاجس في قلبي: هذا هو المكان". م. ن: ١٤. وكذلك كانت نهاية سعيد في النيل فهو لم يطق صبراً بإزاء نداءات الغرب التي ألحت عليه بالمجيء. ينظر: م. ن: ٥٠.

المصادر والمراجع

١) أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند ادوارد سعيد – حسن حنفي– عبد الله العردي، د. نديم الجابري، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

٢) إدوارد سعيد رواية للأجيال، محمد شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٥م.

٣) التراث والتجديد – موقفنا من التراث القديم، د. حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨١.

٤) الاستشراق – المعرفة. السلطة. الانشاء، إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط٧، ٢٠٠٥م.

٥) الاستغراب القسري في جدل التثاقف بين المركز والهوامش، نجلاء مكاوي، مجلة الاستغراب، ع١، س١، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ١٤٣٦هـ– ٢٠٠٥م.

٦) الإسلام في القرون الوسطى، دومينيك سورذيل، تر: علي المقلد، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م

٧) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي (إجمالاً) – دراسة وتحقيق – محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.

٨) الأنتروبولوجيا السياسية، جورج بالانديه، تر: علي المصري، دار مجد، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.

٩) تأريخ الأقطار العربية الحديث، لوتسكي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط٩، ٢٠٠٧م.

١٠) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة – تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة – د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١١) دليل الناقد الأدبي، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٢م

١٢) الشرق الخيالي ورؤية الآخر، تيري هنتش، تر: د. ميّ عبد الكريم، دار المدى، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٦م.

١٣) شرق وغرب رجولة وأنوثة – دراسة في أزمة الجنس في الرواية العربية، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٢م.

١٤) صراع المقهور مع السلطة – دراسة في التحليل النفسي لرواية الطيّب صالح موسم الهجرة إلى الشمال، رجاء نعمة، بيروت، ١٩٨٦م.

١٥) لسان العرب، ابن منظور(ت٧١١ هـ) اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، لبنان، ط٣، د.ت، مادة: غ ر ب.
١٦) المثقفون العرب والغرب – من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب – أحمد الشيخ، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م
١٧) محمود درويش الشاعر – دراسة فنية (رسالة ماجستير) ساري الديك، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٨م.
١٨) مسألة الهوية – العروبة والإسلام... والغرب– د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط٧، ٢٠٠٦م .
١٩) المعرفة والسلطة (مدخل لقراءة فوكو)، جيل دلوز، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٨.
٢٠) مقدمة في علم الاستغراب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٧هـ– ٢٠٠٦م.
٢١) المنجد في اللغة والاعلام، لويس معلوف، دار المشرق، بيروت، ط٢، د.ت: مادة غ ر ب.
٢٢) موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م.
٢٣) نظرة في نشأة وتطور الاستشراق، د. بهجة كامل عبد اللطيف، مجلة كلية الآداب، ع٩، جامعة بغداد، ٢٠٠٩م.
٢٤) نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٩٨٧م.
٢٥) نقد التراث عند حسن حنفي، جليد قادة، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، مركز الكتاب للنشر، ع٥، س١٥، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.
٢٦) الهوية الثقافية والنقد الأدبي، جابر عصفور، دار الشروق، القاهرة، مصر، طبعة خاصة، لمكتبة الأسرة، ٢٠١٠م.